حديث إلى أم ليلى

رجاء محمد بيطار

... نظرت إليّ نظرة باردة، وغمغمت بنبرة تشبه تلك النظرة:

ــ لا بأس عليها.. غداً يهديها الله!

كنت مرغمة على مواصلة الاستماع، فقد كانت ضيفتي، اضطررت إلى التحامل على نفسي، محاولة جهدي أن أتجاوز استيائي، بينما تابعت هي تتحدث، وقد تحولت لهجتها إلى الحماس:

ــ إن ليلى فتاة مجتهدة، وأنت أدرى الناس بها،..إنها مضرب مثل في الذكاء والخلق القويم كما أكدتِ لي دائماً،.. لن يضيرها افتقارها للحجاب اليوم طالما أنها ستلتزم به في المستقبل بلا ريب، ويكون التزامها مبنياً على قناعتها الخاصة، لا على رغبتي أنا.

تنهدّت بأسف، لم أرد أن أقضي على حماسها، ولا كنت أستطيع، فأطرقت أستمع وأستمع، لست أدري إن كانت قد لاحظت ردة فعلي، ولكنني أدري أنها لم تتوقف عن الكلام طيلة الدقائق اللاحقة، وكان محور الكلام بلا ريب، ليلى وطيب شمائلها، حتى إذا فرغت، أو حسبتُ أنها فرغت، رفعت نظري إليها وأنا أهمس في محاولة يائسة:

ــ بارك الله لك في فتاتك يا أم محمود،.. ولكن، احرصي على برّك بها حرصك على حياتك.

اتّسعت عيناها دهشة وهي تسأل:

ــ برّي بها؟!.. ماذا تقصدين؟!..

تبسّمت وأنا أجيب:

ــ أقصد ما عناه إمامنا زين العابدين (ع) في حديثه ضمن مكارم الأخلاق: "برّ الوالدين بالولد أن يحسنا اسمه وتربيته".

انتفضت عاتبة وهي تقول:

ــ أتقصدين أني لست حريصة على تربيتها؟!.. أولا يكفيك كل ما أخبرتك به، وما خبرته بنفسك من أخلاقها؟

ــ خففي عنك يا أم محمود،.. تعلمين أنني لست أقصد هذا، فليلى تلميذتي، وقد عاشرتها وخبرتها كما قلتِ، ولكن برّك بها، حرصك على تربيتها يفتقد العنصر الأساس،..

ــ أي عنصر؟.. إنها تصلي وتصوم منذ تكلفت،.. إنها..

وأدركت أنها ستعود إلى حديثها السابق، فاختصرت الطريق بقولي:

ــ العنصر الأساس هو القشرة التي تحمي الجذع الرطب، والحق الذي يحفظ اللؤلؤة البراقة، كيما يبقى لها لألاؤها وبريقها.

أدركت ما أعني،.. ولكنها لم تتنازل،.. لم ترد أن تقتنع، بل هي فضلت أن تنهي الحديث عند هذا الحد، وقامت تستأذن قائلة:

ـ أشكر لك غيرتك على مصلحة ابنتي يا سيدة وفاء،.. ولكن ثقي أنني أعرف ما أفعل،.. لقد رأيت الكثير من الفتيات يتحجبن رغماً عنهن، فيتخلّين عن الحجاب بعد حين، لا أريد أن أملي على ابنتي قناعاتها، لكي لا يأتي يوم تتخلّى فيه عن تلك القناعة،.. إن ابنتي ستتحجب، ولكن عندما تشاء هي لا أنا، وغداً تبرهن لك الأيام صحة قولي.

لم يكن أمامي من مجال للنقاش بعد، فلم أستطع إلاّ أن أقول، ورنة الأسف تمازج صوتي:

ـ عسى أن تفعل يا أم محمود،.. إني لأرجو من كل قلبي أن تفعل.

ومضى على ذلك الموقف خمس سنوات،.. لم أر خلالها ليلى، ولكني كنت أرى ألف ليلى وليلى،.. فتيات كالورد تفتحاً ونضارة،.. قد زجّت بهنّ أمهاتهن في تلك الحرب الخطرة، بين الحق والباطل، بين الهوى والنهى،.. وكان القرار صعباً، فالجمال المتفتح كان يقف في أكثر الأحيان عقبة بين ما يعلمن أنه حق، وبين ما يمليه عليهن الباطل،.. فقهر الهوى أمر قد يعجز عنه أولو النهى والرشاد، فكيف بفتاة حدث يعوزها النضج وحسن التدبير؟!

..والتقيت أم محمود بعد غياب طويل،.. جمعتنا الأقدار على غير موعد في مكان عام.. اقتربت مني تلقي التحية على استحياء. كنت في صدد الرد حينما صفعني المشهد،.. كانت ليلى تسير قربها، قد صففت شعرها وصبغت وجهها، وارتدت ثوباً يكشف عن مفاتنها أكثر مما يستر، رددت التحية متخاذلة وأنا أنقل نظري بأسف إلى أمها،.. وجدتها قد أشاحت بأنظارها جانباً،.. لعلها أدركت ما فكرت فيه، بل هي أدركت ذلك بلا ريب، بدليل نظرتها إليّ، ثم إلى فتاتي الوحيدة التي كانت تسير بقربي، كانت مريم قد بلغت سن التكليف قبل أشهر، وكانت تضع على رأسها حجاباً صغيراً بريئاً يتلاءم مع صغر وجهها وبراءة نظرتها،.. لقد هزت برأسها وهي تنصرف عني مودّعة، وقد علقت عيناها بمنظر ابنتي، ومضت في سبيلها، ومضيت.

على أنها صدمتني تلك العشية، فاجأتني بزيارتها على غير موعد،.. كان في وجهها أسئلة كثيرة، وعتاب. وما كادت تخلو بي حتى سألتني بحرقة:

ـ أرجوك يا سيدة وفاء.. أخبريني.. لِمَ لم تجر الأمور كما توقعت؟

أنا لم أكن مخطئة تمام الخطأ على ما أظن،.. لقد ربّيت ليلى، لقنتها تعاليم دينها ولم أتهاون معها في أداء فروضها،.. كنت أتوقع أنها ستقتنع بالحجاب بعد حين كما أخبرتك، أنا نفسي تحجبت بعد اقتناع كامل، وفي سن متأخرة كما تعلمين، ولكن لعل ليلى لم يكن يعوزها الاقتناع،.. كانت مقتنعة،.. أعلم الآن أنها كانت مقتنعة، ولكنها مضت تؤجّل وتؤجّل وتؤجّل،.. حتى..

وغصت الأم بدمعتها،.. أقبلت عليها، وفي فؤادي وعيني غصة لا تقل عن غصتها، على ليلى وأخوات ليلى،.. همست بقولي أخفف عنها، وأبوح بما أردت قوله لها منذ أمد طويل، لو أفسحت لي المجال:

ـ رويدك يا أختاه،.. إن رحمة الله واسعة، وعسى أن يشملها الله بعفـــوه وهدايتـــه، ولكن، لعل جوابي عليك سيكون سؤالاً، وأرجو أن تجيبيني عنه بصراحة:

ـ تفضلي،.. وإن كنت أظنني الأحوج إلى طرح الأسئلة.

ـ هل سألت نفسك يوماً يا أم محمود، لماذا الحجاب بالذات، وليس الصلاة والصيـــام مثلاً، هو موضع التشكيك والنقاش في مجتمعنا؟

هزت برأسها في غير ثقة وهي تجيب:

ـ أظن أن دعاة تحرير المرأة، رأوا فيه قيداً يكبّل خطواتها في فـــترة مـــن فـــترات الجهل والتخلف، لعل هذا هو السبب، أليس كذلك؟!

نظرت في وجهها المرهق وأنا أبتسم مجيبة:

ـ أما أنا.. فأظن أن "هذا" هو السبب الظاهر،.. أما السبب الحقيقي، والـــذي تختفـــي وراءه كل الهجمات والصرخات التي وجّهها أولئك المتحررون إلى الحجاب، عن علـــم أو عن جهل منهم ربما، أن الحجاب هو درع المرأة، وهو حصنها الواقي، إن ثبتـــت عليـــه صان لها إسلامها وإيمانها، بأصوله وفروعه، وإن لم تفعل، كان ذاك الإســـلام والإيمـــان عرضة للمهاوي. لقد أدرك هذه الحقيقة أعداء الدين، وأدركوا كذلك أن المرأة هي نصـــف المجتمع، بل هي كله،.. هي الأم والزوجة والمربية، هـــي الخـــير أو هـــي الشـــر،.. إن صلحت صلح المجتمع، وإن فسدت فسد، وعلى هذا الأساس كان الحجاب هـــو الحصـــن الذي هاجموه، لأنهم علموا أنهم إن تجاوزوه وقهروه، وهيهات أن يفعلوا إن لم نشأ نحـــن، فقد خرقوا حصن الإسلام، ونفذوا إلى وسط الدار يعيثـــون فســـاداً، حيـــث لا رقيـــب ولا حسيب.

ـ ولكن،.. ماذا عن ليلى،.. ألا ترين لها من أمل؟! ألا تمدين لي ولها يد العون؟

ـ بل إن الله هو الذي يمد لنا جميعاً يد العون يا أم محمود، ومـــا نحـــن إلا وســـائل رحمته، يوجّهنا ويزرع بنا وفينا الأمل،.. إن ليلى، وأخوات ليلى هن مسؤوليتنا جميعـــاً، وعلى عاتقنا نحمل هم هدايتهن والعودة بهن إلى الصراط المستقيم، فعسى أن يوفقنـــا الله لما فيه الخير، وعسى أن يهديهن سواء السبيل.